سوسن عبد الله العمران

يودايمونيا

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON • CAMBRIDGE • NEW YORK • SHARJAH

الفصل الأول

" علامة العقل المتعلِّم هو قدرته على تداول الفكرة دون أن يتقبَّلها"

أرسطو

هنا ابتدأت حكايتي..

كنت هناك بين مبانٍ مهترئة وموحشة.. تكسوها الظلمة الحالكة.. تقرحت قدماي المجردتان من الشوارع المتكسِّرة.. الخالية من الناس.. تسكنها الأشباح هذه المدينة...!

أمشي مترنحاً ليس لي أي مسكن.. عندما انهار جسدي من النعاس، اتَّجَهتُ لأحد الأرصفة لأريح عيني، واحتميت بالجرائد البالية من قسوة الليل البارد.

ثم غرقت في سبات عميق.. علّي أرى في الحلم ما يسرُّني.

توقَّفَ عن الكتابة ليس لأن مخيلته نفدت من الأفكار بل لأنها ازدحمت بها وبدأت تتصارع.. طلب من الخادم أخذه إلى السرير لينهي هذا الصراع.

هو النوم الذي ينسينا ألمنا ويجعلنا نحلم بما هو أفضل.. وكأنه هروب لحيث اللا شيء.

أغلق عينيه وهناك دموع تهرب خارجةً من طرفي عينيه.. وهو يكتب الكلمات في مخيِّلته.. ذلك الجانب المظلم مني، سأوقده بحب الحياة.. حب الحياة لي.. هو انسياب كل فكرة مجنونة بين يدي على صفحات كتاب..

روحي.. غادرت الأرض وحلَّقت بينها وبين السماء؛ أبحث عن مصدر السعادة الحقيقية، حتى تعبت في ليلة ما، وقرَّرتُ أنَّ سعادتي هي موتي وابتداء الحياة الحقيقية.

لكن دائماً هناك تيارات لا نعلم بوجودها، تقلِب كل موازين السعادة.. تلك بداية قصتي.

آدم هو ابن ٤٥ عاماً.. لديه طفلان سارة وأحمد، ووظيفة حكومية بدخل متوسط.. زوجة راضية ولطيفة.. مرتبة الهندام

حسنة المظهر. في كل ليلة يخرج من المنزل ليختلي مع نفسه، وبأفكاره المتمردة.. لا بدَّ أن أكون أفضل مما أنا عليه.. يتمتم في نفسه، ولكن لا يعمل على تحسين حاله.. فقط يحلم أحلام يقظة..

"أريد مالاً لا يحصى، وأريد جمالاً، عالماً زاخراً بالمرح.. حياتي كئيبة متعبة".

وينسج تخيلات وأفكاراً...

في ليلة ما خرج وهو يقود السيارة.. لا ينظر للطريق بل كان يرى في عقله الباطن إنجازاته الخيالية، حتى سمع صوتاً من بعيد.. "كلام الليل يمحوه النهار".. وأخذت تلك الأنوار تخرج من جسده وتتراقص حوله حتى.. فتح عينيه على طاولة من حديد، والشمس مشرقة.. نسمات الهواء تداعب شعر الفتاة التي بجانبه وتبعثر عطرها الفواح، ليدغدغ شعوره بوجودها.

كانت تبدو كالملاك النائم.. ظلَّ يراقبها معتقداً بأنه حلم حتى فتحت عينيها..

سحر: خالد ما بك؟ ألم تصحُ بعد؟ لمَ تحدق بي هكذا؟

وهي تهزه بيديها الرقيقتين: خالد.. أرجوك.. أريد الخروج...!

في حالة من الذهول، توسَّعت حدقتا عينيه.. هل هذا حلم؟ أم ماذا؟

لم يفق من الصدمة، يقول في نفسه: (من هذه الحسناء؟! هل هو حلم جميل؟!).

سحر بغنج: خالد أرجوك! وهي تشدُّ قميصه. أم إن هناك ما يقلقك؟ منحنية برأسها ليتطاير شعرها الأسود بنسمات الهواء الرقيقة.

خالد: لا عزيزتي.. هيا بنا.. أين تريدين الذهاب؟ لكني أعتقد بأن عينيَّ لا زال يغلبهما النعاس.

سحر: هناك حفلة نظمها أصدقائي أرجوك فلنذهب ونستمتع.

خالد: نعم، هيا لنستمتع. وضحكته ملء شدقيه. أردف: وهل هناك من يكره الحفلات؟

قال هذا وانطلقا لرحلة المرح.. يوم بلا مسؤولية أو عمل، ذهبا للغداء، ثم التسوق والاستعداد.. لليلة مليئة بالرقص والصخب. لم يكن هو آدم بل خالد.. عاش حلمه بكل ما تعنيه كلمة حلم، كأنَّه لا يريد الاستيقاظ أو يخاف من الاستيقاظ.. لا توجد أي مسؤولية، وكل ما يريد من متعة لديه.

غفى على الكرسي من كثرة الشراب واللهو.. عاد ذلك الصوت من جديد يهمس في اذنه: "كلام الليل يمحوه النهار"...

فتح عينيه، وإذا به على سرير مطلي من الذهب، ذي أعمدة مرصَّعة بالياقوت الأحمر، تغطيها ستائر من حرير. كانت الأغطية ناعمة جداً.. يقلب ناظريه وهو يحاول النهوض لكن لا يستطع، حتى تقدَّم منه شخص كبير في السن.. خادمه ألبير..

ألبير: سيدي هل استيقظت؟ إنها الساعة الثامنة صباحاً والطقس جميل.. طعام الإفطار جاهز من أجلك.

وليَم: حسناً، لكن لا أستطيع النهوض.

ألبير: نعم، سأساعدك.

قرَّب إليه الكرسي المتحرك، جحظت عيناه وهو يقول في نفسه: (ما هذا؟). من هول الصدمة.

ساعده ألبير ليضعه على الكرسي، وهو في حالة من الجمود.. عاش لحظة هستيرية، ثم بدأ بالصراخ.. استغرب ألبير..

وليَم: لا.. لا...! أنا لست مُقْعَداً! هذا كابوس! أريد النهوض! ساعدني يا ربّي لأستفيق أرجوك!

يحاول ألبير تهدئته لكن لا جدوى، فدفعه وليَم بكل قوته: ابتعد عني.. أنا لست مُقْعَداً.. أرجوك يا إلهي! أرجوك. (ودموعه منهمرة).. لا أريد شيئاً.. أريد قدميَّ فقط أرجوك.

وهو يضم يديه وتارة يغطي وجهه.

ألبير: سيدي، أنا الذي أرجوك لا تفعل هذا بنفسك.

وليَم: لست سيدك.. لا تتحدث إلي، ابتعد عني!

خرج ألبير وتركه لعله يهدأ.

وليَم: ما هذا؟! هل هو كابوس صعب الاستفاقة منه أم ماذا؟! أم أن هناك جنية تحقق الأحلام وعاقبتني.. من أنا؟! كيف أصبحت هكذا؟!

* الحلم.. هو سلسلة من التخيلات التي تحدث أثناء النوم.. وتختلف الأحلام في مدى تماسكها ومنطقيتها، يقول سيجموند فرويد "إن الأحلام هي وسيلة تلجأ إليها النفس لإشباع رغباتها ودوافعها المكبوتة خاصة، والتي يكون إشباعها صعباً في الواقع.

* واعتقدت بعض الشعوب القديمة مثل الإغريق أن الأحلام عموماً هبة من الآلهة لكشف معلومات للبشر.. وزرع رسالة معينة في عقل الشخص النائم.

شيئا فشيئاً، وكأن هناك من يعيد الشريط للوراء.. لرأسه. صراخ.. صوت مكابح السيارة ثم اصطدام.. رائحة الحريق يرى والده ووالدته.. سيارة الإسعاف.

نعم.. هذا أنا.. لكن ما الذي يحدث؟! كيف كنت آدم وخالداً؟ والآن وليَم؟! كل منهم.. كأني عشت حياة كاملة.. وكأنني أنظر من فوق.. من بعيد.. هذا أنا، كلهم أنا.. هل يُعقل؟ أم هل هي جميعها أحلام؟

الباب يطرق..

ألبير: سيدي هل هدأت الآن؟ هل تريد أن تأكل؟

وليَم: من فضلك أريد فقط الخروج.. أريد استنشاق الهواء أرجوك.

ألبير: حاضر.

وليَم عاش مع والديه في هذا القصر.. وحده.. القصر في أعلى الجبل، بعيد عن صخب المدينة. الأشجار تغطي كل السور، ويحتوي على ٢٠ غرفة مختلفة رغم صغر عائلتهم.

في يوم ما كانوا خارج البلدة، وفي طريق العودة صادفتهم عاصفة من المطر.. ومات والداه وهو الناجي الوحيد.

ألبير تركه في الحديقة وذهب يحضر له كأساً من الشاي كي يهدأ.

وليام يتلفت من حوله.. هنا وهناك.. قصر ومال وعز من دون تعب.. هذا ما أردته.. لكن بدون ساقي.. ما فائدة هذا؟

ودموعه تحفر وجنتيه من الألم.. ساعات مرَّت وهو يحلِّق بعيداً بناظريه لعلَّه يسمع الصوت المشؤوم ويعود..

يعود متشرداً وليس مقعداً.

- ربِّ سامحني ولا تجعل حقيقتي هذه أرجوك!

وهو مطأطئٌ رأسه للأرض...

ألبير: سيدي لقد بدأت الشمس بالمغيب، وأنت لم تأكل شيئاً.. سأضطر للاتصال بعمَّتِك جانيت إن لم تأكل.

وليَم: لا أريد.. فقط خذني إلى السرير.. أريد أن أنام.

وضعه على السرير وهو على أمل أن يغلق عينيه ويفيق على حقيقة أجمل.. لكن النوم تسلل من عينيه.. رغم نعومة الأغطية واتساع السرير...

يحاول بكل قواه النوم.. لكن لم يستطيع، أجهش بالبكاء كالطفل الصغير، وهو يكاد يختنق بكلماته.. يردد: أريد النوم فقط.. إنني مرهق...

حتى نام دون أن يشعر.